سيجموند فرويد

حياته وبحوثه النفسية [1]

بمناسبة مرور قرن على مولده

للأستاذ وديع الضبع

(١)

احتُفِل صيف هذا العام فى معظم أقطار العالم : من الهند واليابان إلى كندا والأرجنتين ، بمرور قرن من الزمان على مولد فرويد ، وهو احتفال يدل على مكانته العلمية الممتازة . وسأحاول هنا فى عبارات موجزة أن أبين ماهية هذه المكانة ، وأن أصف الرجل كما كان يعيش ويعمل .

وسأبدأ بهذا السؤال : ما الذى عمله فرويد حقيقة ؟

ويمكن الإجابة عنه فى إيجاز بأنه ابتدع طريقة لارتياد منطقة من مناطق العقل كانت موصدة فى وجوهنا ، وهي ما ندعوها بالعقل الباطن أو غير الواعى ، هذا ولو أن كثيرين كانوا ينكرون وجوده ، وإن لم يكن فى استطاعتهم إثباته . كما استخدم فرويد الطريقة التى ندعوها « التحليل النفسى » فى تحقيق بحث تفصيلى لمحتويات هذا العقل الباطن ، والأسلوب الخاص الذى يسير وفقه . وعد هذا العقل الكثيرون من الشعراء والفلاسفة منبع تفكيرنا الواعى . ويحوى العقل الباطن أسمى عناصر الطبيعة البشرية كما يحوى أحطها ، وأدق ألوان الخلق وأرفعها ، وأحط صنوف الإباحية وأشد أنواع الأنانية .

ودارت مكتشفات فرويد فى بادىء الأمر حول فحص بعض العلل العصبية من

---

(١) كتب هذا المقال العالم النفسى الانجليزى إرنست جونز Ernest Jones مؤلف كتاب Sigmund Freud : Life and Achievement

ناحية ، وعنى من ناحية أخرى بدراسة حياة الأحلام دراسة عميقة . وتستخدم الآن طريقته استخداماً حكيماً فى معالجة الحالات العصابية . غير أن فضله فى هذه الناحية أقل كثيراً مما أسداه للبشر من حيث توسيع معرفتنا بطبيعة الإنسان .

وقد أشاد كثيرون من قادة الفكر فى العالم بعظمة الأعمال التى أنجزها فرويد وجلال أفضاله على العالم. فإن الأستاذ مكدوجل الزعيم الأكبر لعلماء النفس المدرسيين فى عصرنا أدلى بهذا الحكم القائم على دراسة وافية وهو أن فرويد أضاف إلى معرفة الناس بالطبيعة البشرية أكثر مما قدمه أي رجل آخر منذ أرسطاليس . وقال عنه كاتب مشهور آخر بأنه « رجل يستحق أن يرفع إلى مرتبة أعاظم القادة فى أى عصر: رجل ألقى عقله المستنير نوراً على أشد زوايا العقل البشرى ظلاماً ، رجل قادته شجاعته الأدبية الخارقة واستقلال رأيه إلى سلوك طريق جديد لم يجرؤ أشجع الشجعان من قبله على طرقه » . وقال ثالث : « إنه لم يبرز فى ميدان العلوم النفسية قبل فرويد رائد يمهد له السبيل ، ويضىء له الطريق ، كما هو الشأن فى عالم الرياضيات والفلك بمكتشفات نيوتن الجليلة التى عبدت الطريق أمام اينشتين لكشف نظرية النسبية ، وأنه لهذا السبب تُعد مكتشفات فرويد أعظم عمل ذهنى قام به العقل البشرى » .

فقد عرفنا من بحوثه أن عقل الإنسان ليس بوحدة واحدة ، كما كان الاعتقاد سائداً من قبل ، وإنما يتألف من أجزاء شتى ، وغالباً أجزاء متضاربة . وهذا التصوير الجديد للعقل وارتياد المنطقة اللاواعية منه تؤلف ، لا انقلاباً فى ميدان المعرفة فحسب ، بل أيضاً أساس فرع جديد من العلوم لا يزال فى مراحله الأولى .

وقد حاول فرويد فى أن يبين بالتفصيل تطور العقل من الطفولة الباكرة ، وبذلك ألقى ضوءاً جديداً على ماهية عقل الطفل الناشىء . وقد أثار إعلانه بأن عقل الطفل يحوى رغبات شديدة العداء بعضها لبعض ، وتصريحه بوجود دوافع جنسية تحرك الطفل فى هذه السن الصغيرة — أثار إعلانه هذا من الكثيرين احتجاجات غاضبة على ما كان يُعتقد وقتئذ تدنيساً لقدسية الطفولة البريئة .

وقد جاءت معظم مكتشفات فرويد البكر التى لم يسبقه إليها أحد عن طريق بحثه

الدقيق فى حياة الأحلام التى تقدم أنفذ طريق مباشر إلى العقل غير الواعى . وقد شرح نظريتـه بشأن الأحلام ومعناها فى كتاب طبع منـذ سبع وخمسين سـنه ، ويعد خير مصنفاته . وقد أثبت هذا المصدر (الأحلام) الذى أهمله العلماء زمنًا طويلاً أنه مورد غنى غير مرتقب للمعلومات . وطبَّقـه فرويد لا على نفسـه فقط ، بل أيضًا أثناء عمـله العلاجى النفسى لمرضـاه العصابيين . وقد ألقت بحوثه فى هذا المجـال ضوءاً كبيراً على ماهية الدوافع الجنسية ، وأصل الاضطرابات العصبية التى كانت قبلُ غامضة مثيرة للحيرة

وكان فرويد يؤمن بأن عملياتنا العقلية هي مظاهر ناشئة أصلاً من الغرائز الموروثة التى نطلق عليها اصطلاحى « حب » ، « وكراهية » ، وأن النضال المتواصل بينهما رغم اندماجهما معًا فى بعض الظروف يفضى إلى ألوان من الصراع لا حصر لها فى الطبقات العميقة من العقل ويصحبها اهتزازات وانفعالات مستديمة فى مواقفنا العاطفية الواعية .

والإنسان يلازمه على الدوام شعور بالخوف ينشأ من الفزع الذى تثيره غرائزه البدائية ، دون أن يكون المرء عادة فى مركز يمكنه من إدراك هذا الخوف أو أسبابه ، وأن الإنسان يسيطر عليه الخوف إلى درجة أعظم كثيراً مما يحزر ، وإنه يستند لإنكار قلقه أو إخفائه حتى عن نفسه إلى ألف طريقة وطريقة ، والحق أن جانبًا كبيراً من حياة المرء يشغل فى هذا النضال المستديم غير المذكورة . وكثير من نظمنا الاجتماعية ترمى إلى هذا الهدف ، وهو اتقاء الخوف أو ما يثيره .

وعلى أساس هذا كله طبق فرويد هـذه المكتشفات الجديدة فى دراسته العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية . وقد امتد نطاق هذه المشكلات التى درسها ، فشمل الإبداع الفنى ، وأصول المعتقدات الدينية ، وفجر الضمير ، وأصل الأخلاق ، والأهمية الكبرى للعلاقات العائلية ، وتطور الحيـاة الإنسانية من درك الوحشية إلى مظاهر الحضارة الحديثة ، حتى لقد قال كاتب : « إنه لمن الشاق أن تتصور عالمنا من غيرفرويد ، فإنه هو وأتباعه قد بينوا لنا فكر رجل القرن العشرين ولغته » . ومع أنه من العسير على مؤرخ مدقق أن يقيس بالضبط تأثير رجل واحد فى التغيرات الكثيرة التى طرأت فى الخمسين سنة الماضية ، إلا أنه مما لا نزاع فيـه أن عمل فرويد سيكون له مكانة ممتازة بين الأعمال التى قام بها أعاظم الرجال .

وكان من نتائج بحوثه أن الكثيرين من المفكرين يشعرون أنهم لا يعرفون كل ما يدور حتى فى عقولهم أنفسهم ، وأن أفكارهم ومسالكهم تتأثر فى بعض الأوقات بعمليات عقلية تخفى عليهم . فسقطات اللسان والحوادث المختلفة التى نعدها صدفًا كوضع الأشياء فى غير مواضعها ، أو نسيانها لا تُترك دون تعقيب ودراسة . والحق أن الدافع الخفى الذى أنتج سقطة اللسان[1] أو النسيان يمكن كشفه بعد التنقيب عنه ، ويمكن عرضه على حقيقته المرة على نحو يؤدى إلى زيادة الصدق والأمانة بين الناس ، ولو أنه قد ينشأ عن ذلك بعض العواقب غير المستحبة .

كما عُرف أن للأحلام معنى ، وأنها ليست هذا الخليط المهوش من الصور الذى تبدو فيه ، وأن معنى الأحلام قد يكون ذا أهمية خاصة لأصحابها ، مما سيفضى إلى أن يكون الناس أكثر حذراً وحيطة فى رواية أحلامهم لغير معارفهم ، وحتى أن ذكر اسم فرويد ، يحضر إلى أذهان جمهرة الناس موضوع الأحلام ، والفكرة بأن مسلكنا وكثيراً من رغباتنا تمليه علينا دوافع جنسية خفية . وبفضل فرويد وشجاعته يستطيع الناس الآن أن يبحثوا علانية وبصراحة الظواهر العديدة للنشاط الجنسى.

(٢)

كذلك ندين بالشىء الكثير لدقة بحوث فرويد وعمقها فى نواح أخرى من الحياة . فقد غيّر موقفنا إزاء المجرمين ، وذلك على نحو إنسانى يبعث على الأمل ، وزاد فهمنا لشقاء كثير من الزيجات ، وزادنا معرفة أكثر فأكثر أن كثيراً من صعوبات الحياة مردها إلى عوامل نفسية ، وأن فى المقدور معالجة الاضطرابات العصبية وشفاؤها .

وأحدثت بحوث فرويد تغيرات كثيرة فى طرق التربية والتعليم ، وفى علاقة المدرس بتلميذه ، وفى تنشئة الأطفال . فان كل هذه الأمور وغيرها يمكن إرجاع أصولها إلى تأثير فرويد فى حضه على وجوب فهم صعوبات الأطفال خلال سنى نموهم على نحو يقوم على العطف والتقدير . ولكن مما يؤسف له أن بعض مبادئه طُبقت على نحو خاطىء

(١) يشير الكاتب هنا إلى ما اكتشفه فرويد من أن زلفات اللسان ونسيان أشياء ومن سواها — كلها تنبىء عن حقيقة ما يدور فى عقله الباطن .

لسوء فهم الناس إياها . فمثلاً استخدمنا كلمة « كبت » بوصفها اصطلاحاً فنياً يقصد به « القمع » ، وانه يدل على احتفاظنا ببعض العمليات التى تدور فى العقل غير الواعى ، فى حين أن « الكبت » فى الواقع عملية لا مناص من حدوثها خلال المرحلة الأولى من تطور الطفل ، وتكون نتائج هذه العملية إما طيبة وإما سيئة تبعاً لظروف كل طفل . غير أن كثيرين من الناس اعتقدوا خاطئين أن فرويد يقول إنه من الضار أن يوقف الطفل عند حد ، أو ألا تستجاب جميع طلباته مهما كانت ، فإن فرويد نادى بأن الطفل فى الواقع فى حاجة شديدة إلى إشراف خارجى كي يعاونه على معالجة نوازعه غير المستحبة ، وأن تركه يسير دون هداية رشيدة يضع على كتفه الصغير عبئاً أعظم كثيراً مما يجب أن يتحمله .

وهناك ميدان آخر شرعت أفكار فرويد تطبَّق فيه على نحو يبشر بنتائج طيبة : وهو دراسة الإنسان البدائى . ففى أثناء دراسة فرويد لمرحلة الطفولة ، دهش إذ رأى أن عدداً من الخصائص التى لاحظها فى مسلك الأطفال وأفكارهم تماثل إلى حد بعيد تفكير بعض القبائل الشديدة البدائية التى تعيش الآن ، كاعتقادها فى القوة الفائقة للأفكار . فإن أعضاء هذه القبائل يعتقدون أنه يكفى المرء أن يفكر فى شىء تفكيراً قوياً حتى يتم تنفيذه ويضحى حقيقة واقعة .

وقد قام على هذا الاعتقاد تصديق الناس للسحر والخرافات ، وهى أمور لم يتحرر منها الانسان المتحضر تحرراً تاماً . كما أن لهذا التفكير جانبه الضار . فكثير من القوم يظنون أن رغباتهم العدائية التى لعلهم لم يعبروا عنها جهاراً أدت إلى جلب الأضرار على الآخرين ، مما يبعث فيهم شعور الندم ، كعند فقدهم عزيزاً لهم قد خالجتهم فى وقت ما بعض الأفكار العدائيه نحوه ، فحملهم موته على الاعتقاد بأن أفكارهم كانت السبب فى وقوعه .

وليس فى وسعى أن أعدد جميع ألوان الرموز والأفكار الغامضة أو المضطربه التى تنشأ فى العقل البدائى . ولكنى أذكر خصيصة واحدة ذات أهمية . فان فرويد فى بحثه فى الخيالات المدفونة فى أذهان الأطفال ، وجد أن بعض النوازع التى تشير إلى الميل للفتك وحب إيقاع الأذى الشديد موجودة فى أذهانهم فعلا .

ونحن نعرف أن آكلة البشر لا تزال غالبة فى بعض أرجاء من العالم . بل وتظهر هذه الممارسة فى الوجود حتى فى العالم المتمدين فى بعض الشدائد : كغرق السفن ، أو خلال المجاعات ، أو فى معسكرات الاعتقال . أضف إلى ذلك أن دراسة الشعائر والمعتقدات الأولى تجعل من المرجح الاعتقاد بأن ممارسة هذه الأعمال كانت شيئاً عادياً فى الأيام الأولى من تاريخ الانسان .

ولهذا قد يكون من المفيد أن تطبّق مبادىء فرويد فى نواح أخرى غير الناحية الفردية ، مثل العلاقات الدولية بمظاهرها البغيضة وكوارثها ، وهى العلاقات التى لا تزال تشيد حتى الآن على أحاسيس الخوف والحسد والريبة والميل إلى الفتك الجنونى ، وشأنها شأن ما يخالج الطفل من المشاعر فى أيام طفولته .

(٣)

والآن نتسائل : أى طراز من الناس كان هذا الرجل الذى قام بهذه الأعمال الجليلة ، والذى أحدث هذه الانقلابات الخطيرة فى الأفكار ؟

كان فرويد ممن قاسوا الكثير فى حياته . ولهذا رأى من خطل الرأى الزعم بأن الحياة سهلة ميسرة ؛ وأن من الخير للمرء أن يوطن النفس على أن يراها شاقة مجهدة ، حتى يستمتع بدرجة أعظم بأطايبها التى قد تأتى إليه فى مجرى العيش .

وكان والدا فرويد يهوديين ينتميان للطبقة الوسطى ، ولكن ساءت حالهما وتدهورت منزلتهما . فقضى فرويد أيام شبابه فى فقر شديد لاحقه حتى أواسط العمر . فانه حينما أشرف على الثلاثين من العمر ، كان يعود على نفسه بالتقريع إذا إشترى مثلا أصبع شكولاته يخفف عنه لذعات الجوع أو إذا استمتع بأكلة طيبة دُعى اليها ، بينما كانت أخواته لا يجدن ما يسدون به رمقهن . ثم حل به الافلاس نتيجة للتضخم المالى الذى حاق بالنمسا عقب الحرب العالمية الأولى .

ولكن كل هذه المتاعب لم تفت قط فى عضده . ولم تثنه الشتائم والسباب عن

مواصلة بحوثه . وكان يقابل عادة الشتائم بنكتة أو طرفة ، مثال ذلك ، حينما بلغ الثمانين من العمر ووصلته التهانى من جميع أرجاء العالم ، نشرت بعض الجرائد مقالات تعبر عن تحقيرها لعمله . فكان تعقيب فرويد على هذه المقالات قوله : « من دواعى الغبطة أن يجد المرء أنه لا يزال فى هذا العالم شىء من الأمانة والصدق » .

ولم تمنحه الحكومات والمعاهد العليا تقديرات رسمية على النطاق الذى يستحقه عمله العظيم أو الذى يلقاه معظم كبار العلماء . فأنه لم تمنحه سوى جامعة أمريكية صغيرة درجة شرفية . وقد تنكر لعمله ثلاثة من أقرب أصدقائه (١) الذين كانوا قد عملوامعه عدداً من السنين ، فهاجموا عمله وبحوثه وهجروه . واضطر أن يتحمل خلال الستة عشر عاماً الأخيرة من حياته آلام داء السرطان الذى قضى فى النهاية على حياته بعد فراره من النمسا إلى انجلترا خوفاً من بطش النازيين .

وفى الجانب الآخر كانت حياته العائلية أسعد كثيراً من المألوف . وتوطدت عرى المودة بينه وبين عدد كبير من الأصدقاء المخلصين . وقد عرفتُه لثلاثين عاماً . ويمكننى أن أكذِّب ما قيل عن جفوة خلقه ، وعن عدم احتماله المعارضة . فقد وجدت فيه صديقاً وفياً ورفيقاً مؤنساً عذب الحديث ، يميل إلى الدعابة وإرسال النكتة . فكان مغرماً بأن يجيب عن سؤال ، أو أن يوضح رأياً ، باقتباس ملحة يهودية لطيفة . وكانت جعبته لا تفرغ من هذه الطرائف .

ولم يكن قط متشائماً أو سىء القصد ، ولكنه كان يلجأ أحياناً إلى التهكم الملىء بحضور البديهة . وكان طلقاً فى الحديث فى المحاضرة وفى الكتابة ، ويملك ناصية التعبير فى دقة محكمة . وكان يمقت الشجار ، فكان إذا اضطر إلى الافتراق عن شخص ما ، قطع علاقته معه بقدر ما استطاع من التلطف . وكان متواضعاً ، يسوده روح التواضع العلمى الحق أمام مشكلات الحياة الضخمة ومظاهرها المعقدة .

---

(١) الاشارة هنا الى كل من كارل يونج ، والفرد ادلر ، وولهم شتيكل

ولم يكن فرويد يكنّ احتراماً كبيراً للجنس البشرى بوجه عام . وكانت الفضائل التى يقدرها أعظم التقدير التعاطف والاتزان والدقة . وكان أمقت الأمور لديه القسوة والنفاق . وكان يرى أنه لم يُصَب فى قالب من الفضيلة الحقة سوى نفر قليل جداً من الناس . فقد كان يرى أن المسلك الحسن الذى يتظاهر به الناس كان يمليه عليهم ، لا طيبتهم الطبيعية ، بل دوافع الخوف من رأى الناس ، والسعى وراء المصلحة ، وطلب المادة ؟

وديع الضبع
رئيس قسم التعليم الاجنبي بوزارة التربية والتعليم

الضوضاء والأمراض العصبية

كتب طبيب كبير فى انجلترا إلى مجلة طبية شهيرة ، يقول أن الضوضاء فى بريطانيا العظمى تسبب عنها إصابة عدد كبير من سكانها بالأمراض الوهمية التى لا وجود لها إلا فى مخيلاتهم (hypochondria) . إذ أن واحداً فى كل خمسة من السكان يتقدم لأقرب مستشفى طالباً العلاج فيه . يخيل لهؤلاء أن كل صداع سببه تورم فى المخ يلزم استئصاله بعملية جراحية وأن كل تورم فى الجسم لا بد أن يكون سرطاناً . والنتيجة انتشار هائل فى الأمراض النفسية وما يتأتى عنها من خفقان ، وضغط دم عال ، وقرح معدية ومعوية ، وأرق ، وفقدان شهية ، والإصابة بداء المفاصل .

اهتموا بتدريس العلوم للفتيات

تقوم فى بريطانيا الآن حملة لتشجيع الفتيات على دراسة العلوم الطبيعية بدلاً من الآداب ، وقد أعلنت احدى المشرفات على نقابات العاملات فى انجلترا بأن مجال العمل مفتوح على مصراعيه أمام دارسات العلوم الطبيعة ، وفى ميسورهن العمل فى أقسام الصناعة المختلفة والأبحاث الذرية .

والمشاهد أن حاملات الشهادات الأدبية لا يجدن أعمالاً تناسبهن وكثيرات منهن يعملن سكرتيرات ، بينما تحتل الفتيات اللواتى يحملن شهادات علمية أماكن مرموقة فى محيط العمل .